أثر الحركة في الدعوة

خطبة الجمعة للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في جامع العادلية بحلب بتاريخ ٢٠٠٧/٩/٧م

بعد أن عرض ربُّنا تبارك وتعالى خُلاصة الدرس الشعبانيّ في تبوك، نبّه إلى حقيقةٍ ينبغي أن يتنبه إليها من يريد خدمة دين الله تعالى، فبعد أن استنهض الهمم في درس جيش العسرة، ونبّه إلى فِئات الناس:

- فمنهم من سار مع النبيِّ صلى الله عليه وسلم موافقًا.
- ومنهم من حدَّثته نفسه بالتخلُّف لكنه بقي مصرًّا على الموافقة مصارعًا لنـــزعات نفسه.
- ومنهم من تحرَّك إلى الموافقة لكنه خسر أمام نفسه في آخر المطاف مع كونه مؤمنًا مصدِّقًا.
- ومنهم من تستّر بالأعذار لكنه لا يريد خدمة دين الله...

بعد العرض الذي عرضه القرآن الكريم في درس تبوك نبَّه إلى أمر عامّ، وهو ضرورة بقاء الحركة في الدعوة إلى الله، فلئن كان الاستنفار في غزوة تبوك عامًّا ولم يُعذَر فيه إلا مريضٌ أو صاحبُ عذرٍ صريح، جاء بعد ذلك بتوجيهٍ تستفيد منه الأمّة بعد الاستنفار العام.

ففي الاستنفار العام لا يُعذر أحدٌ إلا صاحبُ عذر، وبعد الاستنفار العامّ لا بد من بقاء ظاهرةٍ في كلّ وقت وهي الحركة المستمرة التي يُنتدب فيها من المسلمين بعضُهم.

وقد نبّه إلى ذلك بقوله: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ أي في غير وقت النفير العامّ.

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ وهو بهذا أراد التمثيل النوعيّ حتى تُمثَّل شرائحُ الأمة بكلِّ أطيافها وأصنافها، وهي آية عامَّة.

فإذا كان التقسيم في وقتٍ ما أُسَريًّا أو عشائريًّا أو قَبَليًّا... يكون الانتقاءُ والانتداب موافقًا لذلك، وإذا تبدَّل تكوينُ المجتمعات فصار التقسيم تقسيمًا لا يتبع القبيلة والعشيرة، لكنه يتبع الاختصاص والاهتمام، يتحول مفهوم الآية إلى تلك التخصُّصات.

ثم إنه لم يندُب من كلِّ فرقة فردًا، لكنه أراد أن تتحرك من كلِّ فرقة طائفة، فربما لم يكن صاحب الاختصاص وحده معبرًّا عن اختصاصه، أما وجود طائفة بدلاً عن الفرد فإنه سيعبّر عن الفرقة.

ثم نبّه إلى أمرٍ غفلنا وغفل المسلمون عنه وهو أثر الحركة في الفهم، فإنه تبارك وتعالى قال:

﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ والفقه في اللغة الفهم، فإذا كانت الجماعة أو التجمُّع أو المجتمع راكدًا يقرأ الدين وهو راكد فإنه سرعان ما يفسد ويتعفَّن، ويطرأ الجمود على عقله وتفكيره، كالماء الراكد سرعان ما يفسد ويتعفَّن، لكنه حينما يجري ويتحرك يتخلَّص من فساده ومن تعفنه، وكذلك الفهم في دين الله.

فإذا كان الإنسان لا يتحرك إلا في دنياه، ولا يسافر إلا في دنياه، ولا يزور إلا في دنياه، ولا يبذل جهده في حركته إلا في دنياه... فإنه لن يكون من أصحاب الفهم في الدين، فالحركة لا بد أنها ستوسِّع آفاق فهمه، وستعلمه كيف يتعامل مع تفصيلات الدين.

أصبح ديننا بسبب جمودنا راكدًا.

نسافر، لكن من أجل دنيانا، وسافر سلفُنا من أجل دينهم.

نتحرك، لكن من أجل دنيانا، وسلفُنا تحرَّكوا من أجل دينهم.

ليس ممنوعًا أن نتحرك في الدنيا، قال تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ، إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ [قريش: ١-٢]، لكن ما أقبح أن تكون حركتنا منحصرة في الدنيا! وما أقبح أن نكون أصحاب نشاط وهمة في خدمة الدنيا، ولا يكون شيءٌ من ذلك في خدمة دين الله!

فإذا بقيتَ في جمودك وركودتك فلن تصير صاحب فهمٍ في الدين.

﴿وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢] لأنهم انتفعوا وحصّلُوا من الفهم ما لم يحصِّله الراكد في جموده وسكونه، فلما رجع من حركته تلك استفاد منه الراكد الساكن، وهكذا دواليك يتناوب المتحرِّك والساكن، فتارةً يصير المتحرك ساكنًا، وتارة يصير الساكن متحركًا.

فإذا كانت الأمة أو المجتمع أو التجمع أو الجماعة على هذه الشاكلة فإنها لن تعاني من سوء الفهم في الدين، ولن تعاني من الفساد والتعفن في أسلوب المعاملات.

ولو أننا قرأنا القرآن الكريم سنجد أن الذين أثنى الله تبارك وتعالى عليهم كان وصفهم فيما وصف القرآن الكريم الحركةَ لا السكون:

- ففي إبراهيم عليه الصلاة والسلام قال: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾ [الصافات: ٩٩].
- وفي هجرة المدينة قال: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا﴾ [النساء: ١٠٠].
- وفي سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١] فما جلس في بيته وبين أهله، إنما تحرك.

وقد جاء التأكيد على تلك الحركة في آيات كثيرة، منها على سبيل المثال لا الحصر:

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي تحرَّكوا، ونَفَرَ: تحرَّك بسرعة، ﴿اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ فاخترتم السكون على الحركة، ﴿أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ فالدنيا تجذبكم إلى الأرض، وتقيِّدكم بالمادة... أما صاحب الروحانية فإنه خفيف النفس، ولا يعاني من أثقال الأغلال، وينشط في الحركة من أجل دين الله، ولا يعاني من هذا الصراع الذي يشده إلى الأرض والمادة... ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

– على أنه تبارك وتعالى أكّد هذا الأمر بالحركة حتى ولو كان الإنسان ثقيلاً، فقد لا يجد تلك الخفّة، لكن التكليف مؤكَّد، لهذا قال: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً﴾ [التوبة: ٤١].

شدّتكم الدنيا بأغلالها، أن كنتم في الروحانية تنشطون إلى الحركة.

التكليف يؤكِّد على الحركة.

﴿انْفِرُوا﴾ أي تحرَّكوا بسرعة من أجل دين الله، ﴿خِفَافًا وَثِقَالاً﴾ .

الذي ينتظرنا كثيرٌ، والفتنُ بدأت ظلالها تدخل عالمنا الإسلاميَّ بقوة، والمساحة التي نحن فيها ستكون الميدان، فهي الساحة التي أخبر عنها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بلاد الشام – أرض العراق – أرض الحجاز – أرض مصر) هي المساحة، فأكثر الأحاديث تحدّثت عن هذه المساحة.

ففي أرض الشام بيتُ المَقْدِس، وتبدأ الفِتَن من العراق، وميدانها يتراوح ليصل إلى الحجاز ومصر، وينتهي جنوبًا في اليمن.

لكن هل تعلمون ما تفعله الفتنة فيمن لم يكن على الاستعداد والجاهزية؟

إنها ستكون كالسيف، فالذي ينفع الناس يمكث في الأرض، والذي يكون زَبَدًا وغُثاءً لن يكون له أيُّ أثر، ولن يبقَى له أيُّ بقية: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

إذا لم نُدرِّب نفوسنا على الحركة من أجل دين الله تعالى، وإذا بقينا مُخدَّرين بالمادة، ومشغولين عن رسالتنا الكُبرى، فإننا سنكون الزَّبَد الذي يجرفه السَيل.

﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١]

– وانظر إلى ذلك التوصيف لمن آثَر السكون على الحركة، قال تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١]

– وانظر أيضًا إلى ذلك التوصيف الذي وصف فيه الله تبارك وتعالى من استجاب لجاذبية المادة، ووافق نـــزعة نفسه في الميل إلى المادة، وترك الحركة في سبيل الله، وترك الحركة من أجل خدمة دين الله.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ أي القادرون على الحركة، ﴿وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٨٦].

شهر رمضان سيُقْبِل، لكن إذا فهمنا شهر رمضان مجرَّد شهرٍ تعبُّديٍّ روحانيّ، و لم نفهم منه أنه المناسبة التي تُحرِّك الإنسان وتنتزعه من أغلاله وقيوده لتُهيئه للحركة، فما فهمنا شهر رمضان، فالروحانية ليست مقصدًا، إنما هي وسيلة.

فإذا فهم الإنسان شهر رمضان شهر روحانية لتكون الروحانيَّة مقصودَه، فما فهم شهر رمضان.

فجهاد رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغزوة الكبرى التي غزاها (غزوة بدر) كان في رمضان، وآخرُ غزوة غزاها، وهي غزوة تبوك، عاد من غزوه إلى المدينة في شهر رمضان، وفي شهر رمضان كان فتح مكة، وفي شهر رمضان أنـــزل الله تعالى القرآن ليُحرِّك الأمة، لا من أجل أن تجلس الأمة أمام أوراق المصحف، تُعيد التلاوة مرَّاتٍ ومرات، دون أن تفهم أن هذا المصحف يدعوها لتكون أمَّةً أُخرجت للناس وما أُقعدت، تأمر بالمعروف ولا تسكت وتصمت، وتنهى عن المنكر ولا تبقى كالخرساء أمام المُنكرات، وتؤمن بالله فتُقدّم الغيب على المادة.

هذا هو القرآن الذي نـــزل في رمضان، لكننا فهمنا هذا القرآن سُورًا تُتلى وتُكرَّر، دون أن يكون لهذا القرآن أيُّ صدى في سلوكنا وحركتنا ونهضتنا وحضارتنا.

المشكلة أننا لا نتحرك، فكيف نفهم الدين؟

﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ﴾

رُدَّنا اللهم إلى دينك ردًّا جميلاً، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.